الأحد 24/1/2010

الشيخ محمد خير الشعَّال

سلسلة مكارم الأخلاق

الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

بدأنا في الحديث عن أهمية الأخلاق والثمرات التي نجنيها منها، والأوزار المترتبة عليها وعنوان درسنا اليوم **الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه.**

قد يتصف أحدنا بعيب من العيوب وقد يتمكن العيب منه غير أنه لا يراه ويظن نفسه أنه على صواب وحق، والواقع أنه على خطأ.

وفي الطب قاعدة تقول: **اكتشاف المرض نصف العلاج**، فما الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه؟

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**» [الترمذي].

قال بعض البلغاء: **الحسَنُ الخُلُق من نفسه في راحة، والناس منه في سلامة، والسيء الخلق الناس منه في بلاء، وهو من نفسه في عناء.**

تجد صاحب اللسان الفاحش يؤذي نفسه ومن حوله، وكم من مرة يندم لأنه تكلم بهذه الكلمة، وربما طرد من العمل من جراء كلمة قالها، وربما طُلِّقَت زوجته من جراء كلمة قالها، وربما خسر شريكاً وكان يعينه في عمله من جراء كلمة قالها.

يقول الفضيل بن عياض: (**إذا خالطت فخالط حسن الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى خير وصاحبه منه في راحة، ولا تخالط سيء الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر وصاحبه منه في عناء.**

ولأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحبني قارئ سيء الخلق

إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عاش بعقله وخف على الناس وأحبوه، وإن العابد إذا كان سيء الخلق ثقل على الناس ومقتوه) [روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للبُستي].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ**» [ابن حبان].

ولمعرفة عيوب النفس أربعة طرق:

1- المعلم:

يجب عليك أن تتخذ معلماً بصيراً بعيوب النفس والخلق وتقترب منه وتلتزمه وتتَتَلمذ عليه وتتبع نصائحه وإرشاداته ليخبرك بالمساوئ والمحاسن من الأخلاق.

- من هو سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لولا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ ما كان سيدنا أبو بكر إلا رجلاً من العرب شأنه كشأنهم لكنه لما صاحب ولازم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبَصَّرَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيوب نفسه صار صِدِّيق هذه الأمة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ**» [الإمام أحمد وأبو داود].

لما وقعت حادثة الإفك وتكلم من تكلم في هذه الحادثة ومن بينهم (مِسْطَحُ) تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: **فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسِبُوهُ﴾ **العَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا.**

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ-: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ

لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا [البخاري ومسلم].

- سيدنا عمر رضي الله عنه كان جباراً في الجاهلية لكنه بعد الإسلام صار «لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ» [الترمذي وأحمد والحاكم عن عقبة بن عامر].

وصار «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ» [البخاري].

عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» [البخاري].

فبصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع أبو بكر وعمر وعثمان وسعد وأبو ذر وطلحة والزبير وحذيفة...

وكذلك صحبة العالم ترفع من قيمتك وقدرك حتى أن الأدب ليرفع المملوك حتى يجلسه في مجالس الملوك.

من كان عفيف اليد واللسان والنظر والمجلس وصاحب أصدقاء صالحين فإن ذلك يرفع من قيمته في الدنيا والآخرة، أما إذا ابتلي الإنسان بالكذب والخيانة والكبر والاستهزاء من الناس والسخرية منهم فتراه بمنظر يعجبك بداية لكن إذا عرفت خلقه سقط من عينك.

حُدِّثت عن رجل طلب عاملاً لشركته فجاءه عامل وسيم حسن الهيئة والمنظر وبعد عشرة أيام أرسله لإيصال بضاعة لزبون واستلام مبلغ مالي منه فما أوصل العامل إلا نصف الثمن ليضع النصف الثاني بجيبه، وبعد يومين ومن خلال اتصال بين صاحب المعمل والزبون علم بفعل العامل فلما راجعه أنكر المال فطُرد من الشركة.

لكن إذا صحبت معلماً وما التزمت كلامه فما استفدنا شيئاً ترى رجلاً يلتزم عند معلم فإذا أنبه مرة قرر أن لا يعود للحضور لديه.

قال الإمام الشافعي:

اصبر على مرِّ الجفا من معلمٍ ... فإنَّ رسوبَ العلمِ في نفراتهِ

ومنْ لم يذق مُرَّ التعلمِ ساعةً ... تجرَّعَ ذُلَّ الجهل طولَ حياته

ومن فاتهُ التَّعليمُ وقتَ شبابهِ ... فكبِّر عليه أربعاً لوفاته

وَذَاتُ الْفَتَى –واللَّهِ– بالْعِلْمِ وَالتُّقَى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتهِ

بلغني عن رجل صار جَدَّاً وهو ينظر إلى أفلام سيئة حتى أن أحفاده يتعجبون من صنيعه.

صحبتك للمعلم تأخذ منها أدباً وخلقاً وتطبعاً.

2– الصاحب الصادق:

صاحبك المخلص من يذكرك إذا نسيت ويعينك إذا ذكرت، أما إذا كان صاحبك يتستر على عيوبك وأخلاقك المرذولة فهو صاحب كذوب صحبته لك لأجل مصلحة من ضحك أو لعب أو مال.

إذا خرج الشاب من بيته مُغضباً ولقيه صاحبه فقال له: الحق معك؛ فإن أَبَوَاك لا يفهمان عليك ويدعوه بطريقة ما إلى عقوق الوالدين فهو صاحب سيئ، أما من ينبهك ويقول لك: هذا من عمل العقوق عَنَّفَكَ وربما خاصمك فاعلم أن هذا صديق صادق.

وقد قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **(رحم الله من أهدى إلي عيوبي)**.

صاحب أحدهم صاحباً وبعد سَنَةٍ قال له: لا أريد أن ألقاك بعد هذا اليوم أو تلقاني، فسأله صاحبه عن السبب متعجباً؟! فقال له: أنا صاحبك من سنة ولم تنبهني عن عيب من عيوبي أبداً.

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **دُعِيَ عُمَرُ، لِجَنَازَةٍ، فَخَرَجَ فِيهَا أَوْ يُرِيدُهَا فَتَعَلَّقْتُ بِهِ فَقُلْتُ: اجْلِسْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْ أُولَئِكَ، فَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللَّهَ أَنَا مِنْهُمْ، قَالَ: لَا وَلَا أُبَرِّئُ أَحَدًا بَعْدَكَ** [البزار في المسند وأبو نعيم في الحلية].

كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام يخفون عني عيوبي [إحياء علوم الدين].

مثل الأخوين كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى.

مراراً ما يكون الصاحب الصادق هو من يأخذ بيد أخيه ليرده من الهلكة إلى النجاة بصدقه وأمانته.

عن يُونُسِ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أُمِّهِ (الْعَالِيَةِ) قَالَتْ: **خَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مَحَبَّةَ إِلَى مَكَّةَ فَدَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهَا, فَقَالَتْ لَنَا: «مَنْ أَنْتُنَّ؟», قُلْنَا: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ, قَالَتْ: فَكَأَنَّهَا أَعْرَضَتْ عَنَّا, فَقَالَتْ لَهَا أُمُّ مَحَبَّةَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ وَإِنِّي بِعْتُهَا مِنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ الْأَنْصَارِيِّ بِثَمَانِمِائَةِ دِرْهَمٍ إِلَى عَطَائِهِ, وَإِنَّهُ أَرَادَ بَيْعَهَا فَابْتَعْتُهَا مِنْهُ بِسِتِّمِائَةِ دِرْهَمٍ نَقْدًا, قَالَتْ: فَأَقْبَلَتْ عَلَيْنَا, فَقَالَتْ: «بِئْسَمَا شَرَيْتِ وَمَا اشْتَرَيْتِ, فَأَبْلِغِي زَيْدًا أَنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ» , فَقَالَتْ لَهَا: أَرَأَيْتِ إِنْ لَمْ آخُذْ مِنْهُ إِلَّا رَأْسَ مَالِي؟, قَالَتْ:** ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275] [الدارقطني والبيهقي].

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: **خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: (أَوَّهْ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ)** [الحاكم].

يرى الآخرون عيوبك أكثر مما تراه بنفسك فاجتهد لتسأل إخوانك عن أخطائك ليخبروك بها.

3- الخصم:

استفد عيوبك من خصومك فانظر ما يقوله أعداؤك عنك لتصلحه؛ لأن:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ وَلَكِنَّ عَينَ السُّخْطِ تُبْدي المسَاوِيَا

فمن تكلم عنك بالنقص فلا تنزعج لأنه قد يخبرك بعيوبك فتصححها.

قالوا انتفاع الإنسان بخصم يذكره بعيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه.

4- المخالطة:

خالط الناس فما تراه مذموماً فيهم فطالب نفسك بتجنبه والابتعاد عنه.

وقد جاء أن الجاحظ سئل: **ممن تعلمت الأدب؟ فقال: من قليل الأدب.**

من خالط الناس:

قابل من يخلف الميعاد فإذا كرهت فعله فتعلم أن لا تفعل مثله.

يقترض إنسان منك قرضاً ثم يتأخر في سداده فإذا كرهت فعله فتعلم أن لا تفعل مثله.

ترى رجلاً يقوم بمعرف تحبه منه فاسع لتقوم بما قام من خير.

- حصل بين شريكين خصومة فأرادا حل الشراكة واختارا صديقاً لي ليكون محكِّماً بينهما جلس صديقي مع الشريك الأول لوحده ليتفق معه بما سيأخذه من بضاعة فإذا بالشريك يقول له: لا أريد أخذ هذا النصيب من البضاعة؛ لأني أضر بذلك شريكي وكذلك أجاب الثاني.

فالمستمع لهذه القصة عليه أن يتعلم أنه في حال الخصومة يجب أن يكون مراعياً لخصمه ولا يفعل إلا ما يرضي الله سبحانه.

- ترى زوجان يحصل بينهما طلاق ومع ذلك تجد أخلاقهم عالية جداً فكل منهما لا يرضى أن يتكلم أحد على الطرف الآخر رغم كل ما حصل.

- أحد الشباب عقد على فتاة وكلا العروسين ذوا أخلاق حسنة ومن أُسَرٍ حسنة وبعد أشهر قررت الفتاة مع أهلها أن لا يستمر العقد فطلبوا إنهاءه ولم يبدوا السبب، فأرسل الشاب من يتكلم عليه بالسوء أمامهم ليعرف سبب هذا القرار غير أنهم دافعوا عن الشاب في غيبته ولم يسمحوا لأحد أن يتكلم عليه.

فما علينا إن حدث طلاق أن نكون كما قال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229].

- شاهدت شاباً غضب فضرب الطاولة فكسر زجاجها وشقت يده، وهناك بعض النساء إذا غضبن صرخن حتى يُسْمِعْنَ البناء بأسره.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.